جهود حجة الإسلام الغزالي في خدمة علوم الشريعة
كتاب "إحياء علوم الدين" أنموذجاً

د.رشيد كُهُوس

أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان– المغرب

Efforts of Hujat Al Islam (Al Ghazali) in serving the Sharia`a sciences, (Rising the Religion Sciences) book as a sample.

Ph.D. Rashid Kuhwus
Master in Religion fundamentals college –Tétouan Morocco

1-The book (Rising the Religion Sciences) by Hujat Al Islam (Imam AboHamid Al Ghazali (Allah mercy him)) considers one of the precious diamonds that inlayed the Islamic thinking crown.

2-The book considered one of the useful books in the Islamic library , where it consists great benefits, huge uses and unique uses .

3-Al Ghazali (Allah mercy him) gathered in this book what were divided in another books, and he talked about the absentFiqh in this time, it is the hearts' Fiqh.

4-Thus it became a substantial pillar in the legal sciences high structure.

Les efforts de Hodjatolislam Al-Ghazali dans le service des sciences juridiques, le livre(*La renaissance des sciences de la religion*) comme un modèle

D:- Rashid Kahwass
Professeur dans la faculté de la théologie religieuse à Tétouan, Maroc…

1-Le livre de (La renaissance des sciences de la religion) de Hodjatolislam l'Imam Al-Ghazali (qu'Allah lui soit miséricordeux)est considéré l'une des perles et pierres précieuses que la couronne de la pensée islamique soit cloutée…

2-Le livre de (la renaissance des sciences de la religion) est considéré l'un des versions bénéfiques dans la bibliothèque islamique, de raison qu'il implique des grandes avantages et des récompenses significatives nombreuses et des rares anecdotes…

3-Il en a recueilli (qu'Allah lui soit miséricordieux) ce qu'il manque dans les autres, et dans lequel il a aussi parlé sur la jurisprudence qui était dissimulée à ce temps et qui est appelée la jurisprudence des cœurs…

4-La raison pour laquelle ce livre était le pilier essentiel dans l'édifice des sciences juridiques…

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمام الأكملان على سيدنا محمد خير خلق الله أجمعين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحابته الكرام أجمعين.

أما بعد؛

فإن الرجال العظام الذين خدموا علوم الشريعة كثيرون جدا في تاريخنا الإسلامي، وإن سلستهم لم تنقطع، وجهودهم لم تتوقف في عصر من العصور، منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا، إذ نجد في كل جيل من أجيال هذه الأمة من بذل جهوده واحتسب نفسه وماله خدمة للشريعة، ودفاعا عنها، وذودا عن حماها.

ومن هؤلاء الجلة الكرام، الذي وقع اختياري عليه، الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله، من خلال معلمته النفيسة، وموسوعته النادرة "إحياء علوم الدين".

وسأتناول ذلك في مبحثين رئيسين:

الأول: خصصته لجوانب من حياته ونشأته وإشعاعه العلمي.

والثاني: خصصته لكتابه النفيس إحياء علوم الدين وأهميته ومنهجه فيه.

المبحث الأول

نبذة من سيرة الإمام الغزالي

المطلب الأول

المولد والنشأة

هو حجة الإسلام، أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي الشافعي. سمي بـ(الغَزَّالي) لأن أباه كان غزَّالاً يغزل الصوف، وقيل لأن أصله من قرية (غزالة) من قرى طوس فيكون (الغزالي) بتخفيف الزاي.

ولد الغزالي –رحمه الله– في الطابران –إحدى بلدتي طوس– سنة ٤٥٠هـ الموافق لـ ١٠٥٨م، وتوفي فيها سنة ٥٠٥هـ الموافق لـ ١١١١م[١].

كان أبوه رجلًا فقيرًا، صالحًا، يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس، فيأكل من كسب يده، وكان يطوف على المتفقهة ويجالسهم، ويتوفر على خدمتهم، ويجد في الإحسان إليهم، والنفقة بما يمكنه، وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع إلى الله أن يرزقه ابنًا ويجعله فقيهًا، ويحضر مجالس الوعظ، فإذا طاب وقته بكى، وسأل الله أن يرزقه ابنًا واعظًا، فاستجاب الله دعوته، فرزقه بأبي حامد الذي صار أفقه أهل زمانه وبأخيه أحمد الذي صار واعظاً مؤثرًا.

ولقد مرَّت حياة الغزالي بعدة مراحل هي:

أولاً: مرحلة تربيته على يد أحد شيوخ التربية (بدايات طلبه العلم):

لما حضرت والد الغزالي الوفاة وابناه صغيران أوصى بهما إلى صديق له من أهل الخير ومن شيوخ التربية، وقال له: إن لي لتأسفًا عظيمًا على تعلم الخط،

---

(١) وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، ٢١٦/٤. ، وطبقات الشافعية الكبرى، السبكي، تحقيق: عبدالفتاح الطناحي،١٩١/٦. سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٣٢٣/١٩، وطبقات الشافعية، ابن قاضي شهبة، ٢٠٦/٢.

وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين فعلمهما، ولا عليك أن تنفق في ذلك جميع ما أخلفه لهما [١].

ولما مات الأب أقبل الوصي على تعليمهما إلى أن فني ذلك النزر اليسير الذي خلفه لهما أبوهما، وتعذر على الوصي القيام بقوتهما فقال لهما: "اعلما أني أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة – كأنكما من طلبة العلم– فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما، ففعلا ذلك، وكان الغزالي يحكي عن هذا ويقول: "طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله"[٢].

ثم إن الغزالي قرأ طرفًا من الفقه ببلده على أبي حامد أحمد بن محمد الطوسي الراذكاني[٣].

ودفعته همته العالية إلى طلب العلم في آفاق أوسع فسافر إلى جرجان، وهناك تتلمذ على أبي القاسم إسماعيل بن مسعدة الإسماعيلي وعلق عنه (التعليقة) ثم عاد إلى طوس وفي طريق العودة قطع عليه الطريق.

يقول الإمام أسعد الميهني: فسمعته يقول: قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم، فالتفت إلى مقدمهم وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت.

فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد علي تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به؟.

فقال لي: وما هي تعليقتك ؟

فقلت: كتب في تلك المخلاة، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها، فضحك وقال: كيف تدعي أنك عرفت علمها، وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها، وبقيت بلا علم، ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلي المخلاة.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى، ١٩٣/٦، سير أعلام النبلاء، ٣٣٥/١٩.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى، ١٩٤/٦.

(٣) المصدر نفسه، ٩١/٤.

قال الغزالي: فقلت هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما وافيت طوس، أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين، حتى حفظت جميع ما علقته، وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي[١].

ثانياً: مرحلة تلمذته على الإمام الجويني مجدد المذهب الأشعري:

ولم تقف طموحات الغزالي العملية، عند ما حصله، فسافر إلى نيسابور، وهناك تتلمذ على إمام الحرمين ولازمه، وجد واجتهد حتى برع في المذهب والخلاف والجدل، والأصلين والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة، وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وصنف في كل فن من هذه العلوم كتباً أحسن تأليفها وأجاد وضعها.

واستمر الغزالي ملازماً لإمام الحرمين حتى مات سنة ٤٧٨هـ [٢].

يقول الدكتور ماجد عرسان الكيلاني: "والتحاق الغزالي بإمام الحرمين لا يمكن فصله عن طبيعة الغزالي نفسه وعن التيارات الفكرية آنذاك، فإمام الحرمين أشعري شافعي، والأشاعرة كانوا يتصدرون الاتجاهات الفكرية، ولذلك كانوا أكثر جاذبية لنفس الغزالي الشاب، ولعقله المتطلع إلى المعرفة والانتماء"[٣] .

ثالثاً: اتصاله بنظام الملك السلجوقي وتدريسه في نظامية بغداد التي أنشئت للدفاع عن مذهب أهل السنة:

لما مات إمام الحرمين –رحمه الله– خرج الغزالي إلى المعسكر قاصدًا الوزير نظام الملك، إذ كان مجلسه مجمع أهل العلم، فناظر الأئمة في مجلسه وقهر الخصوم وظهر عليهم، فاعترفوا بفضله وتلقاه الصاحب بالعظيم، وولاه تدريس مدرسته ببغداد فقدم بغداد سنة ٤٨٤ ودرس بالنظامية فأعجب الخلق علمه وكماله وفضله[٤].

---

(١)طبقات الشافعية الكبرى، ١٩٥/٦.

(٢)طبقات الشافعية الكبرى، ١٩٦/٦. وسير أعلام النبلاء، ٣٣٥/١٩.

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ١٠٢.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى، ١٩٦/٦.

وفي بغداد انصرف إلى دراسة الفلسفة دراسة عميقة، فطالع كتب الفارابي وابن سينا بصورة خاصة، وألف على إثر ذلك كتابه "مقاصد الفلاسفة"، الذي يدل على اطلاعه وسعة علمه بالفلسفة ثم صنف بعد ذلك كتابه "تهافت الفلاسفة" فأبطل مذاهبهم.

وصنف في هذه الفترة أيضًا كتبًا في شتى الفنون، فصنف في الأصول والفقه والخلاف.

رابعاً: مرحلة خروجه من بغداد للبحث عن السعادة واليقين(٤٨٨هـ).

لقد علا صيت الغزالي في بغداد وبزَّ الأقران، وأصبح ملجأ أهل السنة في رد ضلالات الفلاسفة الباطنية، وبلغت شهرته ومكانته العلمية في العالم الإسلامي أوجها، وصل الرجل إلى أقصى ما يصل إليه عالم في ذلك العصر من المجد والسمو والرئاسة، وأقبل إليه الطلاب من الآفاق، وخضع له العلماء والأمراء والوزراء، وبقي في عاصمة العالم الإسلامي يدرس ويفيد ويصنف، وكان في ذلك ما يرضي عالما يحرص على الإفادة ونشر العلم، وطموحا يريد الرئاسة والمجد، وكان المنتظر أن يبقى الغزالي –وقد انتهت إليه رئاسة العلم في العالم الإسلامي– في مركزه العلمي الذي ليس فوقه مركز، ويقضي حياته بين حلقات الطلبة التي تحيط به، وجموع المستمعين والقاصدين التي تحدق به، وبين إعجاب الناس وثنائهم، قرير العين، رخي البال، مرفوع الرأس، عظيم الجاه، كما فعل كثير من شيوخه وأكثر أقرانه وأصدقائه.

ولكن الغزالي لم يفعل ذلك، ولم تسمح له نفسه القلقة وهمته القعساء بأن يستمر في ذلك. وفي هذا القلق، وفي هذا التمرد على ما تهيأ له من جاه ومجد، سر عبقريته، وسر خلوده من بين الأقران والأعيان، ولذلك سمي "حجة الإسلام" وقد استطاع بقوة إرادته، وصدق طلبه، وعلوم همته، أن يضحي بأكبر منصب وأعظم جاه يطمح إليه العلماء والأذكياء في عصره، ثم لم يناله إلا الواحد بعد الواحد في مدة طويلة، وسهل عليه أن يتخلى عنه ويعتزله، وينفض يده من كل ما يملكه من مال وأثاث ورياش، وينتقل من دولة العلم التي كان يحكم فيها وحده ويسود إلى

الصحارى والخلوات التي كان يعيش فيها عيش الفقراء والغرباء. إنه مثال رائع في تاريخ العلم والعقيدة تندر نظائره في كل زمان ومكان.

لقد عزف الغزالي عن الدنيا وأبهتها وخرج من بغداد عام ٤٨٨هـ إلى الحج بعد أن استناب أخاه الشيخ أحمد الغزالي في التدريس. ثم دخل دمشق عام ٤٨٩هـ، فأقام بها أيامًا، ومن ثم توجه إلى بيت المقدس فجاور به مدة، ثم عاد إلى دمشق واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع، وبها كانت إقامته، فقام بالشام مدة، وهو معتكف على العبادة، وألف في هذه المرحلة (إحياء علوم الدين) و(الأربعين في أصول الدين)[١].

وأما مدة إقامته في دمشق فقد قال في المنقذ: "ثم دخلت الشام وأقمت فيها قريباً من سنتين"[٢].

ثم قال: "ثم رحلت منها إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسي"[٣].

ثم يقول: "ودمت على ذلك مقدار عشر سنين"[٤]. أي متنقلاً بين دمشق والقدس والحجاز ومصر والإسكندرية وغيرها. ثم ترك الغزالي دمشق وأخذ يجول في البلاد، فقصد مصر وأقام بالإسكندرية مدة، واصل بعدها تجواله. والتقى الغزالي في دمشق الفقيه نصر ابن إبراهيم المقدسي سنة ٤٨٩هـ و أخذ عنه [٥].

خامساً: عودة الغزالي من عزلته حتى وفاته.

وبعد عودته من دمشق اتجه إلى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ وحدث بالإحياء، ثم رجع إلى طوس ولازم بيته [٦]. قال في المنقذ من الضلال والهادي إلى ذي

---

(١) نفسه، ١٩٧/٦.

(٢) المنقذ من الضلال، تحقيق: سعد كريم الفقي، ص٣٨.

(٣) نفسه، ٣٨.

(٤) نفسه، ص٣٩.

(٥) سير أعلام النبلاء، ١٣٩/١٩. وطبقات الشافعية الكبرى، ١٩٨/٦.

(٦) طبقات الشافعية الكبرى، ٢٠٠/٦.

العرش والجلال: "ثم جذبتني الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق إليه فآثرت العزلة به أيضًا حرصًا على الخلوة، وتصفية القلب للذكر"(١).

ثم إن الوزير فخر الدين بن نظام الملك حضر إليه وطلب منه أن يدرس في نظامية نيسابور وألح عليه حتى استجاب له، وأقام في التدريس(٢) مدة حتى اغتيل فخر الدين رحمه الله بيد باطني سنة (٥٠٠ه)، فاعتزل الغزالي التدريس، وأقام في بلده طوس وبنى مدرسة وزاوية بجوار بيته، وعكف على التعليم والتربية (٣)، ولما استوزر السلطان محمد بن ملك شاه أحمد بن نظام الملك سنة (٥٠٠هـ)، طلب الوزير من الغزالي الرجوع إلى بغداد وكان محله في المدرسة النظامية لم يسده من يماثل الغزالي وكتب الوزير قوام الدين بن نظام الملك، رسالة للغزالي يبين فيها حرص السلطان على رجوع الغزالي إليها، ولكنه اعتذر.

وبقي في طوس يدرس ويفيد ويربي الطالبين(٤). وألف في هذه المرحلة كتابه "المستصفى في علم الأصول" عام (٥٠٤هـ) .

وكان الغزالي لم يتفرغ لدراسة الحديث فأقبل عليه في آخر حياته واستدعى أبا الفتيان، عمر بن أبي الحسن الرواسي الحافظ الطوسي، وأكرمه وسمع عليه صحيحي البخاري ومسلم(٥).

قال عبد القاهر الفارسي: "وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ﷺ ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين البخاري ومسلم اللذين هما حجة الإسلام"(٦).

---

(١) المنقذ من الضلال، ٣٩.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى، ٢٠٨/٦.

(٣) نفسه، ٢٠٠/٦.

(٤) نفسه، ٢٨/٦.

(٥) نفسه، ١١/٤.

(٦) نفسه، ٢١٠/٦.

وممن سمع الغزالي عنهم الحديث: أبو سهل محمد بن عبد الله الحفصي، سمع منه صحيح البخاري[١].

والحاكم أبو الفتح الحاكمي الطوسي سمع منه سنن أبي داود [٢].

وقرأ صحيح البخاري ومسلم على عمر بن عبد الكريم ابن سعدويه [٣].

وسمع من أبي عبد محمد بن أحمد الخواري، كتاب مولد النبي ﷺ، كما سمع من محمد بن يحيى بن محمد الزوزني [٤].

وفاة الغزالي:

وفي آخر أيامه –رحمه الله– وزع أوقاته بين ختم قرآن ومجالسة أهل القلوب، والقعود للتدريس، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه عن فائدة[٥]، حتى وافته المنية حيث انتقل الغزالي إلى رحمته تعالى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة، ودفن بظاهر قصبة طابران.

وقد حكى ابن الجوزي عن أخيه أحمد في قصة وفاته:

قال: "لما كان يوم الاثنين وقت الصبح، توضأ أخي وصلى وقال: علي بالكفن فأخذه وقبله ووضعه على عينيه وقال سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مد رجليه، واستقبل القبلة، وانتقل إلى رضوان الله تعالى"[٦].

---

(١) نفسه، ٢١٤/٦.

(٢) نفسه، ٢١٢/٦.

(٣) البداية والنهاية، لابن الكثير، ١٧٢/١٢.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى، ٢١٣/٦.

(٥) نفسه.

(٦) طبقات الشافعية الكبرى، ٢٠١/٦.

المطلب الثاني

العلوم التي برع فيها الغزالي.

إن الإمام الغزالي –رحمه الله– موسوعة عصره فلم يترك علمًا من العلـــوم إلا واشتغل به، بل وبرع فيه حتى وازى أرباب هذا العلم وفاقهم وكان منهجه يستند إلى الشك العلمي، فيبدأ في دراسته لأي علم بعدة تساؤلات، ثم يدخل في غمار هذا العلم ويتعمق فيه تعمق الخبير المتبصر، ثم يؤلف فيه ذاكرًا ماله وما عليه، ويخرج لنـــا بنظرة مستقلة عن هذا العلم، فهو لا يقبل التقليد ويتمرد عليه وفيما يلي أذكر بعض العلوم التي برع فيها الغزالي على وجه الاختصار:

أولًا: علم الكلام.

يقول حجة الإسلام: "إني ابتدأت بعلم الكلام، فحصَّلته، وعقلته، وطالعت كتـــب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علمًا وافيًا بمقصوده، غير واف بمقصودي، وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة، فقد ألقى الله تعالى، إلى عباده على لسان رسوله ﷺ عقيدة هي الحق. علـــى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار. ثم ألقى الشـــيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة، فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحـــق على أهلها.

فأنشأ الله تعالى، طائفة المتكلمين، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتـــب، يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة، على خلاف السنة المأثورة، فمنه نشأ علـــم الكلام وأهله، فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه، فأحسنوا الذب عن السنة، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة"(١).

درس الإمام الغزالي علم الكلام على أستاذه المجدد في المذهب الأشعري إمـــام الحرمين الجويني ولكنه لم يقلده فيما أخذ منه، بل تعمق في مذهب الأشعري تعمقًـــا كبيرًا حتى صار له نظرته المستقلة وافق الأشعري في بعض المسائل وخالفه فـــي

(١) المنقذ من الضلال، ص١٣.

بعضها، كما أخذ ينتقد المتكلمين على مؤاخذتهم العوام بعلم الكلام وتكليفهم بمعرفة الدلائل الكلامية، والتقسيمات المرتبة، وأن من يجهل ذلك، ولم يعرف الله عن طريق الكلام والأدلة المحررة فهو ناقص في دينه أو شاك في يقينه.

قال الغزالي في كتابه فيصل التفرقة: "ومن أشد الناس غلوًا وإسرافًا، طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التي قررناها فهو كافر فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولًا، وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلمين، ثم جهلوا ما تواتر من السنة ثانياً، إذ ظهر في عصر رسول الله ﷺ وعصر الصحابة ﷺ حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن ولم يشتغلوا بعلم الدليل ولو اشتغلوا فيه لم يفهموه ومن ظن أن مدرك الإيمان الكلام والأدلة المجردة والتقسيمات المرتبة فقد بعد عن الإنصاف، بل الإيمان نور يقذفه الله في قلوب عباده عطية وهدية من عنده"(١).

كما انتقد المتعصبين من الأشاعرة الذين يعتبرون الخروج عن مذهب الأشعري كفرًا أو زندقة وطالبهم بالدليل على ذلك.

يقول في فيصل التفرقة: "إني رأيتك أيها الأخ المشفق، والصديق المتعصب، موغر الصدر، منقسم الفكر، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسَّد، على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين، وزعم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين، والمشايخ المتكلمين وأن العدول عن مذهب الأشعري، ولو في قيد شعرة كفر، ومباينته ولو في نزر، ضلال وخسر"(٢). ثم قال: "خاطب نفسك وصاحبك وطالبه بحد الكفر، فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعري، أو مذهب المعتزلي، أو مذهب الحنبلي، أو غيره، فاعلم أنه غرٌّ بليد، قد قيَّده التقليد فهو أعمى من العميان، فلا تضيع بإصلاحه الزمان"(٣).

---

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، الغزالي، ص٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣-١٤.

(٣) نفسه، ١٩.

ومع كثرة الأيام وكثرة التجارب العلمية ازداد الغزالي اقتناعًا بأن أسلوب القرآن في الإقناع أبلغ وأنفع وأعم وأشمل للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة، وأن علم الكلام علاج مؤقت ومختص بمن نشأ عنده شكوك وشبهات ولا حاجة للطبائع السليمة والعقول المستقيمة إليه. يقول في إلجام العوام عن علم الكلام: "فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء، ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الأكثرون، بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوي، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة، ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلًا"اهـ.

أما في كتابه إحياء علوم الدين فاقتصر على بيان قواعد العقيدة، وقال عن علم الكلام: "فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل لمقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الأسماع، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة، ونبعت جماعة لفقوا لها شبهًا ورتبوا فيها كلامًا مؤلفًا، فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذونًا فيه، بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة"(١).

ثم يقول:"فلقد قبض رسول الله ﷺ عن آلاف من الصحابة ﷺ كلهم علماء بالله، أثنى عليهم رسول الله ﷺ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام"(٢).

ثانيًا: علم المنطق.

درس الغزالي علم المنطق دراسة منهجية معمقة حتى فاق علماءه المؤسسين له، وقد بدأ الغزالي ناقدًا للمنطق ثم أخذ بتجويزه، وجعله أداة إسلامية يستعان بها

(١) إحياء علوم الدين، ٢٢/١.

(٢) نفسه.

في الفقه والاجتهاد، وجعله علماً إسلامياً منهجاً ومصطلحاً وطبعه بسمات العقلية الإسلامية. وكتب في المنطق كتباً كثيرة منها: "معيار العلم"، و"محل النظر في المنطق"، و"القسطاس المستقيم".

ثالثًا: علم الفقه.

كان الإمام الغزالي متبعاً لمذهب الإمام الشافعي –رحمه الله– في الفقه، وقد دافع عن تقديمه للشافعي على غيره من الأئمة في كتابه المنخول [١].

ولكنه لم يكن متبعًا للشافعي بدون دليل فهو أحيانًا يختار رأيًا يخالف فيه ظاهر المذهب، وهذا يدل على أنه كان إذا ظهر له الدليل فهو معه سواء أكان مخالفاً للشافعي أم موافقاً له.

يقول الشيخ أبو زهرة: "قد يقول القائل: إن الغزالي كان شافعياً وقد اختار أن يكتب فقه الشافعي ويدونه، أهو مقلد أم غير مقلد؟. ونقول في الإجابة عن ذلك: "إن الغزالي كان شافعي المذهب لاشك في ذلك، ولكن الفارق بينه وبين غيره أنه لم يقبل أقوال الشافعي إلا أنه قد ارتضى منهاجه، فقد ارتضى الأصول التي قررها، وصدقه في الروايات التي رواها، لأنه عدل ثقة، وارتضى منهاجه في الاستنباط، ووجد الأقيسة التي انتهى إليها صحيحة سليمة من كل الوجوه، فكان لابد أن يسلم معه بالنتائج التي وصل إليها، وبذلك لا يكون قد قبل بلا حجة، بل قبله بحجة ودليل"[٢].

وقد كتب الغزالي في آخر كتابه "المستصفى" فصلًا في (وجوب الاجتهاد على المجتهد، وتحريم التقليد عليه) فهو يشعر بأنه كان يذهب إلى ما ذهب إليه الشافعي عن اجتهاد واقتناع.

وقد ألف الغزالي في المذهب الشافعي عدة كتب منها: "البسيط في المذهب"، و"الوسيط المحيط بآثار البسيط"، و"الوجيز في الفقه"، و"خلاصة المختصر".

---

(١) انظر: المنخول من تعليقات الأصول، الغزالي، تحقيق: محمد حسن هيتو، ص٦٠٠ وما بعدها.

(٢) بحث الشيخ أبو زهرة في مهرجان الغزالي، ص٥٦٧.

وتعد كتبه الفقهية الحلقة الوسطى في تطور التصنيف في المذهب الشافعي، فمن المعلوم أن كتب الشافعية عبارة عن حلقات متصلة:

أولها: كتب الشافعي وأصحابه كالمزني والبويطي.

والثانية: كتب إمام الحرمين الجويني وتلميذه الغزالي.

والثالثة: كتب الشيخين الرافعي والنووي.

والرابعة: كتب أصحاب الشروح والحواشي من المتأخرين(١).

وفي فترة عزلة الغزالي، وهي الفترة التي ألف فيها الإحياء جاء بأسلوب جديد في الفقه خرج فيه عن الأسلوب التقليدي فقد مزج بين الفقه والسلوك في آن واحد، فالصلاة عنده ليست مجرد ركوع وسجود، ولكنها أيضاً خشوع بين يدي الله تعالى. والمعاملات ليست مجرد بيع وشراء وربح ولكنها قضاء لحوائج المسلمين ونصح لهم.

وبهذا خطا الغزالي خطوة واسعة في كتابة الفقه بأسلوب جديد يستشعر القارئ معه النظرة الكلية للفقه الإسلامي تلك النظرة التي تتعامل مع الإنسان كله: جسماً وروحاً، عقلاً وفكراً (٢).

كما أن الغزالي خالف إمامه الشافعي في بعض المسائل في كتابه الإحياء: فقد رجح مذهب مالك في أقسام المياه على مذهب الشافعي وأيده بثمانية أدلة. كما أنه رجح جواز بيع المعاطاة خلافاً للشافعي.

رابعًا: علم أصول الفقه:

لقد كان للإمام الغزالي مؤلفات أصولية عديدة ولكن منها ما كان مفقودًا، ومنها ما لم يطبع، ومنها ما طبع، فأما مؤلفاته المطبوعة فهي:

"كتاب المنخول من تعليق الأصول": يعد المنخول من أوائل كتب الغزالي في الأصول على الإطلاق ويبدو أنه كتبه في أواخر حياة شيخه إمام الحرمين، وبإجراء موازنة بين الإمام الغزالي في "المنخول" الذي يعدّ من أوائل مؤلفاته الأصولية وبين

---

(١) انظر: مقدمة تحقيق الفتاوى للغزالي، تحقيق: علي مصطفى الطسة، ص٤٢.

(٢) انظر: الإمام الغزالي حجة الإسلام، صالح الشامي، ٢٢٧.

"المستصفى" الذي يعدّ من أواخر مؤلفاته يظهر الإمام الغزالي في المنخول تلميذاً تابعاً لآراء شيخه إمام الحرمين، بينما ظهر في "المستصفى" إمامًا ذا شخصية مستقلة عن سابقيه وله آراؤه الخاصة. وقد أعرض الغزالي في المستصفى عن كثير من آرائه التي وافق فيها إمام الحرمين في المنخول، وكذلك عن آراء اختارها لنفسه في فترة عزلته، وتبنى آراء قد تناقض سابقاتها. ولقد ناقش الإمام في المنخول مسائل لغوية ونحوية عديدة لم تناقش في المستصفى أو غيره.

كما ناقش الإمام الغزالي في آخر المنخول فصلًا في أسباب تقديم مذهب الشافعي، وإبطال مذهب أبي حنيفة، ولكنه تراجع عن منهجه هذا في "المستصفى" حيث اتخذ موقف العدل في عرض الآراء دون تحييز مذهبي قدر الإمكان. ولكن تميز منهج الغزالي في "المنخول" بأنه غالباً ما ينسب الأقوال إلى قائلها بدقة، بينما ندر أن يفعل ذلك في المستصفى.

كتاب "شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل": وسلك الغزالي في هذا الكتاب أسلوب المناظرة والإلزام بالحجة، ولقد اتخذ طريقة السؤال والجواب منهجًا في عرض المسألة وفهمها، حتى إنه أحيانًا يتخيل معترضًا ثم يرد عليه، وكأنه في هذا الكتاب ركز على صياغة منهج متميز في المناظرة والمجادلة. ولقد تميز هذا الكتاب بأنه أورد كثيرًا من الأمثلة والتطبيقات لمسائل التعليل والقياس التي لا توجد في كثير من كتب الأصول وفي ذلك مؤشر إلى قدرة الأصوليّ في تنزيل القواعد الأصولية إلى التطبيقات العملية.

يعدُّ "الشفاء" رسالة متخصصة في التعليل والقياس، ومع هذا لم يتناول حجية القياس أو أدلة القول بالتعليل وذلك لأن خطابه كان يستهدف القائلين بالقياس لا المعارضين وكأنه طرح منهجي في أساليب المناظرة والحوار من جهة، وتقديم منهج في العلة والتعليل من جهة أخرى [١].

(١) انظر: قراءة في كتب الإمام الغزالي الأصولية، زينب طه العلواني، مجلة إسلامية المعرفة، السنة السابعة، العدد: ٢٧، شتاء ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ص١٢١.

كتاب "المستصفى في علم الأصول": وقد ألفه الغزالي بعد خروجه من خلوته والكتاب واحد من الكتب الأربعة المعتمدة على طريقة المتكلمين أو الشافعيين، كما ترجع أهميته في أنه يعدُّ آخر كتبه الأصولية والذي استبطن فيه كتبه الأصولية السابقة مع محاولاته في تقديم منهجه الأصولي الأخير فاستفتح المستصفى بقوله: "..أشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع، واصطحب فيه الرأي والشرع، وعلم الفقه وأصوله من هذا القبيل، فإنه يأخذ من صفو العقل والشرع سواء السبيل، فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول، ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد "اهـ.

ويمثل كتاب "المستصفى" لأبى حامد الغزالي محطة مهمة في تجديد علم أصول الفقه، إذ تضمن إضافة نوعية على مستوى المضمون تمثلت في مقدمة في مدارك العقول، واحتوت مباحث كلامية ولغوية هي من صميم علم المنطق. واعتبر الإمام الغزالي هذه المقدمة مدخلًا ضروريًا لجميع العلوم بما فيها علم أصول الفقه، وأن من لم يُحِطْ بها فلا ثقة بعلومه أصلًا. كما بحث بمنهجية جديدة موضوع القياس، وباقي الأدلة المختلف فيها. أما على مستوى الصياغة، فقد رتب الغزالي في كتابه "المستصفى" المادة الأصولية في إطار هيكلة لم يسبق إليها، حيث قسم الموضوعات الأصولية على أربعة محاور: الأول الحكم، والثاني أدلة الأحكام، والثالث كيفية استثمار الأحكام، والرابع حكم المستثمر.

وقد تبنى الأصوليون بعد الإمام الغزالي هذه الهيكلة، الأمر الذي جعل كتاب "المستصفى" نقطة الاستقرار لكل من المضمون والشكل في مجال أصول الفقه إلى غاية القرن الثامن الهجري[١].

خامسًا: علم التصوف أو السلوك.

يقول الإمام الغزالي عن سلوكه طريق القوم: "ثم إني، لما فرغت من هذه العلوم، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل؛ وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس. والتنزه عن أخلاقها المذمومة

(١) طبقات الشافعية الكبرى، ١٩٦/٦. وسير أعلام النبلاء، ٣٣٥/١٩.

وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بـــها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله"(١).

"وكان العلم أيسر عليّ من العمل. فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتـــبهم مثل: ((قوت القلوب)) لأبي طالب المكي وكتب ((الحارث المحاسبي))، والمتفرقات المأثورة عن ((الجنيد)) و((الشبلي)) و((أبي يزيد البسطامي))، وغيرهم من المشايخ رحمهم الله؛ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع. فظهر لي أن أخص خواصهم، ما لا يمكن الوصـــول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات...

فعلمت يقيناً أنـــهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال. وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبقَ إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالـــذوق والسلوك"(٢).

ويقول: "وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله، قطعُ علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكُنه الهمة على الله تعالى. وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق"(٣).

إن الجاهلين الذين نقموا على الإمام الغزالي؛ كان بسبب أمرين اثنين: أشعرية عقيدته، ومشربه الصوفي؛ فكانت نظرتهم إلى العقيدة الأشعرية قاصرة، كنظرتهم إلى التصوف، فهم لا يفرقون بين التصوف بمعناه السلوكي الإحساني الذي يرفع همة صاحبه لطلب المعالي والدرجات العلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر، والتصوف الذي يخدر الناس ويطيل نومهم في أقبية الجهل والرضا بالظلم...!

(١) المنقذ من الضلال، ص ٣٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤-٣٥.

(٣) نفسه، ص٣٦.

أضف إلى هذا أنه استقر في ذهنهم أن التصوف ومنهاج السلف لا يجتمعان، كما استقر في أذهان كثير من الناس أن العلوم العقلية وعلوم الشريعة على طرفي نقيض..

وكلها مفاهيم بعيدة عن الواقع ومخالفة لتعاليم الإسلام ومنهاجه، والإمام الغزالي كتب كتاب الإحياء بعد تصوفه، ومع ذلك لا يخلو كتاب من كتبه من الدعوة إلى التزام منهاج السلف الصالح (وهم الصحابة والتابعون).

وأما الذين لا يستطيعون تصور اجتماع منهاج السلف والتصوف معا في سلوك فكر واحد، في آن واحد، فما قرأوا كتاب "الاستقامة" للإمام أبي العباس بن تيمية، وكتاب "طريق الهجرتين" لتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية–رحمهما الله–.

هذا علاوة على جهلهم الميدان الذي اشتغل فيه الإمام الغزالي والإصلاح الفكري العام الذي قام به، حيث كانت الفلسفة والباطنية تسرحان وترتعان، دون رقيب أو حسيب، فقد شمر الغزالي على ساعده، وتصدى لهما دون أن ينتظر مساعدة من أحد، حتى رد الفلسفة إلى خنادق الدفاع بعد أن كانت في موقع الهجوم، وعزلها عن جندها الذي كانت تعتمد عليه من علوم الرياضيات والطبيعيات والمنطق.. حتى أبقاها وحيدة بغير سلاح. وقد عرض نفسه للخطر وهو يؤدي رسالته في فضح تعاليم الباطنية، حتى هزمهم الله على يديه.

ورحم الله الإمام الغزالي القائل: "فيجب الاحتراز عن ظن السوء، وعن تهمة الأشرار، فإن الأشرار لا يظنون بالناس إلا الشر، فمهما رأيت إنسانا يسيء الظن بالناس طالبا للعيوب، فاعلم أنه خبيث الباطن، وأن خبثه يترشح منه، وإنما غيره من حيث هو، فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق"[١].

(١) إحياء علوم الدين، ٣/٣٦.

المطلب الثالث

مصنفاته

سأذكر بإيجاز كتب الغزالي المقطوع بصحة نسبتها إليه مرتبة حسب العام الذي ألفت فيه مع ذكر المطبوع منها والمخطوط والمفقود:

أولا- في الفقه.

١- البسيط في المذهب (في مذهب الشافعي) (حُقِّقت بعض أبوابه).

٢- التعليقة في فروع المذهب.

٣- الوسيط في المذهب أو الوسيط المحيط بآثار البسيط وهو خلاصة البسيط (محقق مطبوع).

٤- الوجيز في الفقه (محقق مطبوع).

٥- خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر (محقق ومطبوع).

٦- غاية الغور في مسائل الدور(مخطوط).

٧- غور الدور في المسألة السريجية (مخطوط).

٨- الفتاوى (مطبوع).

ثانيا- في أصول الفقه.

١-المنخول من تعليق الأصول (محقق ومطبوع).

٢- مفصل الخلاف في أصول الفقه (مفقود).

٣-شفاء الغليل في الشبه والمخيل ومسالك التعليل (محقق ومطبوع).

٤- تهذيب الأصول (مفقود).

٥-حقيقة القولين (محقق ومطبوع) .

٦- المستصفى من علم الأصول (محقق ومطبوع).

٧-أساس القياس (محقق ومطبوع).

٨- المكنون في علم الأصول (مفقود).

٩- المأخذ في الخلافيات (مفقود).

ثالثا- في الفلسفة والمنطق والكلام والعقيدة.

١-مقاصد الفلاسفة(محقق ومطبوع).

٢-تهافت الفلاسفة(محقق ومطبوع).

٣-المنقذ من الضلال(محقق ومطبوع).

٤- الاقتصاد في الاعتقاد (محقق ومطبوع).

٥-فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة (محقق ومطبوع).

٦- قواعد العقائد (وهو قسم من الإحياء).

٧- القسطاس المستقيم (محقق ومطبوع).

٨- كيمياء السعادة (محقق ومطبوع).

٩- المقاصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (محقق ومطبوع).

١٠-كتاب الأربعين في أصول الدين (محقق ومطبوع).

١١- معيار العلم في فن المنطق (محقق ومطبوع).

١٢- معارج القدس في معرفة النفس(محقق ومطبوع).

١٣-جواهر القرآن (محقق ومطبوع).

١٤- محك النظر في المنطق (محقق ومطبوع).

١٥- إلجام العوام عن علم الكلام (محقق ومطبوع).

١٦- الدرج المرقوم بالجداول (مفقود).

١٧- القانون الكلي في التأويل (محقق ومطبوع).

١٨- المنتخل في علم الجدل (محقق ومطبوع).

١٩- الحكمة في مخلوقات الله(محقق ومطبوع).

وهناك من يشكك في نسبة بعضها إليه.

رابعا- في الإحسان والأخلاق والتربية.

١-إحياء علوم الدين (محقق ومطبوع).

٢- منهاج العابدين (محقق ومطبوع).

٣- أيها الولد (محقق ومطبوع).

٤-بداية الهداية (محقق ومطبوع).

٥- ميزان العمل (محقق ومطبوع).

٦-معراج السالكين (مطبوع).

٧-التبر المسبوك في نصيحة الملوك (محقق ومطبوع).

خامسا- في الأديان والفرق.

١-القول الجميل في الرد على من غير الإنجيل.

٢-مفصل الخلاف (مفقود).

٣-قواصم الباطنية (مفقود).

٤-الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل (محقق ومطبوع).

٥-المستظهري "فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية"(محقق ومطبوع).

سادسا- في التفسير .

١- تفسير ياقوت التأويل في تفسير التنزيل (مفقود).

سابعا- في علم الخلاف وطرق المناظرة.

١-مآخذ الخلاف (مفقود).

٢-لباب النظر (مفقود).

٣-تحصين المآخذ (مفقود).

٤-المبادئ والغايات (مفقود).

وللإمام الغزالي أكثر من أربعمائة مصنف، بعضها مطبوع، وبعضها مخطوط، وبعضها مفقود، وقد أجملها عبد الرحمن بدوي في كتابه (مؤلفات الغزالي) وكـــذلك المؤرخون.

المطلب الرابع

ثناء العلماء عليه

أولا: ثناء القدماء عليه.

قال شيخه إمام الحرمين: "الغزالي بحر مغدق"(١).

وقال تلميذه الشيخ محمد بن يحيى-رحمه الله-: "الغزالي هو الشافعي الثاني".

وقال معاصره الشيخ عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي-رحمه الله-: "أبو حامد الغزالي حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، من لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً وخاطراً وذكاءً وطبعاً".

وقال أسعد الميهني: "لا يصل إلى معرفة علم الغزالي وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله"(٢).

وترجم له الإمام الذهبي -رحمه الله- فقال: "الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف والذكاء المفرط"(٣).

وترجم له الإمام تاج الدين السبكي -رحمه الله- فقال: "حجة الإسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام، جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم، جرت الأئمة قبله بشأو ولم تقع منه بالغاية، ولا وقف عند مطلب وراء مطلب لأصحاب النهاية والبداية"(٤)

وقال عنه الشيخ ابن النجار-رحمه الله-: "أبو حامد إمام الفقهاء على الإطلاق ورباني الأمة بالاتفاق، ومجتهد زمانه، وعين أوانه برع في المذهب والأصول

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى، ١٩٦/٦.

(٢) نفسه، ٢٠٢/٦ -٢٠٤.

(٣) سير أعلام النبلاء، ٣٢٢/١٩.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى، ١٩٢/٦.

والخلاف والجدل والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة، وفهم كلامهم وتصدى للرد عليهم، وكان شديد الذكاء، قوي الإدراك، ذا فطنة ثاقبة، وغوص على المعاني"(١).

وقال الشيخ ابن العماد الحنبلي –رحمه الله–: "الإمام زين الدين حجة الإسلام، أبو حامد أحد الأعلام، صنف التصانيف مع التصون والذكاء المفرط والاستبحار في العلم وبالجملة ما رأى الرجل مثل نفسه"(٢).

وقال عنه الإمام ابن كثير–رحمه الله–: "كان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه"(٣).

قال الإمام أبو بكر بن العربي–رحمه الله–: "رأيت الغزالي ببغداد يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم"(٤).

ثانيًا: ثناء العلماء المعاصرين عليه.

قال شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي –رحمه الله–: "إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه بك الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم، وشعب المعرفة، فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابي خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام، وإذا ذكر البخاري ومسلم وأحمد، خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ، والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال...، أما إذا ذكر الغزالي فقد تشعبت النواحي ولم يخطر بالبال رجل واحد، بل خطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق الماهر، والغزالي الفقيه الحر، والغزالي المتكلم، إمام السنة وحامي حماها، والغزالي الاجتماعي، الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب، والغزالي الفيلسوف، أو الذي ناهض الفلسفة، وكشف عما فيها، إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره، رجل متعطش إلى معرفة كل شيء نهم إلى فروع المعرفة"(٥).

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٣٣٥/١٩.

(٢) شذرات الذهب، ١٠/٢ .

(٣) البداية و النهاية، ١٧٣/١٢.

(٤) شذرات الذهب، ١٣/٢ .

(٥) الغزالي بين مادحيه وناقديه، يوسف القرضاوي، ص١٩.

وقال العلامة يوسف القرضاوي-حفظه الله-: "إن التاريخ يـــذكر أن جمهـــور المسلمين قد عرفوه-الغزالي- بأنه حجة الإسلام ومجدد القرن الخـــامس، ومحـــي علوم الدين"(١).

وقال الدكتور سليمان الأشقر-رحمه الله-: "إن الغزالي بذكائه المفرط، وإيمانه الصادق، ونفسه الحساسة، أمَدَّ المكتبة الإسلامية بمادة غزيرة في كل العلوم التـــي تطرق إليها، كالفقه وأصول الفقه وعلم طريق الآخرة، ورد على الفلاسفة، كالباطنية والملاحدة والإمامية، والمعتزلة، وتقوى به علم أهل السنة، بما أمدهم به من حســـن الاحتجاج، وقوة البيان"(٢).

وقال الأستاذ محمد حسن هيتو: "إن الغزالي أمة لوحده في علومـــه، ومعارفـــه الشخصية"(٣).

(١) نفسه، ص٩.

(٢) مقدمة تحقيق المستصفى، ص٨ .

(٣) مقدمة تحقيق المنخول، ص ٣٢ .

المبحث الثاني

"إحياء علوم الدين" خدمة لعلوم الدين

المطلب الأول

مقدمات ممهدات.

أولا- حيثيات تأليف إحياء علوم الدين.

كان حجة الإسلام أبو حامد -رحمه الله- قادرًا على الانطلاق وعلى التحكم في الذات، وعلى أن يعيش في الدنيا وأن يعتزل ويعيش في السنوات الطوال بين الدنيا والآخرة. يا له من عظيم خدم الإسلام والمسلمين في منعطف من منعطفات الطريق.

لقد ترك لنا العملاق الكبير موسوعة ضخمة أطلق عليها اسم "إحياء علوم الدين"، ومات -رحمه الله- بعد أن عاش في دنيانا مدة قصيرة من الزمن إذا قيست بأعمار بعض الناس. فقد ولد عام (٤٥٠هـ) وتوفي سنة (٥٠٥هـ)، أي إنه عاش خمسًا وخمسين عاما؛ اعتزل فيها الدنيا سنوات ليست بالقصيرة، متفرغًا للتفكير وللتدبر في الوحي والكون والعقل والنفس. وقد تألق في دحضه لحجج الفلاسفة، وأعطانا خلاصة تفكيره ونجاحه في الخروج من مستنقع الشك إلى أعلى درجات اليقين في كتابه "المنقذ من الضلال".

إن القرن الذي عاش فيه الغزالي كان قرن صراعات كلامية قاتلة بين المتكلمين والمحدثين والفقهاء. وفي نفس الوقت ساد التصوف البدعي الذي مثّل مرحلة تخدير للأمة نمت تحت ظلالها الحركات الباطنية والقرمطية، وتقدم الإفرنج يزحفون بجحافلهم من كل بلاد أوروبا؛ لأنهم أدركوا مستوى القاع الذي انحدر إليه المسلمون، وعرفوا أن قبلتهم لم تعد واحدة ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ (الحشر:١٤). أما أصحاب الحركات الضالة الذين غلبتهم اللاعقلانية واللامنطقية، فأوّلوا الإسلام تأويلاً باطنيًّا غنوصيًّا، وشتتوا وجدان المسلم وعقله.

وتلفت الغزالي حوله فلم يجد معيناً له على الحق الذي يعرفه، ولا على الفقه الشمولي للإسلام الذي يريده. فقد رأى تآكل أهل الحق الداخلي، وشراسة أهل الباطل الخارجية، وامتداد الملحدين في فراغ المسلمين. وفي إطار الجمع بين الخلوة والتفاعل، والشريعة والحكمة، والحديث والفقه، كتب الغزالي كتابه النفيس الذائع الصيت "إحياء علوم الدين".

لقد عكف جمهرة العلماء على الاستفادة من الخير الكبير الذي يفيض به كتاب "إحياء علوم الدين"، فهو في الحقيقة موسوعة علوم شتى! فقد ضم في ثناياه علم النفس والأخلاق والاجتماع والاقتصاد إلى جانب العلوم الإسلامية: علم العقيدة والفقه، والتفسير والتصوف، وقد صاغ الغزالي منها جوانب وأركاناً متناسقة متماسكة لبنيان علمي واحد، أقام منه مجمعاً للحقائق الإسلامية الكاملة التي لا مزيد عليها.

ثانيا- الحاجة لعلوم الدين وعلوم الدنيا.

إن العلوم المسماة "ظلمًا" بعلوم الدنيا قد تكون -إذا توافرت لها النيات الصالحة والأدوات الصحيحة والمقاصد النبيلة- من علوم الدين. فالطبيب الذي يعالج الأبدان لتكون قادرة على العمل وبذل الجهد وأداء حقوق الله وحقوق عباده، أشرف وأزكى وأقرب إلى الله من الفقيه الذي يميت على الناس دينهم، ويمزق رؤيتهم، ويميل إلى التشدّد والتنطع بدعوى الورع أو الأخذ بالأحوط حتى ولو تسبّب في تدمير العائلات وتفكيك المجتمعات، وقد يمتلئ قلبه بالتعصب المذهبي والبغض لإخوانه المتبعين للمذاهب الأخرى... وهكذا يمكن أن نقول في سائر علوم الدنيا.

ولئن ران على عقول المسلمين نوع من الفقه الكليل بالدين وعلومه، فقد ران على عقولهم نوع من الجهل الفاضح بعلوم الدنيا، فبينما أصروا على "فرض" حفظ القرآن على أبنائهم، أصرّوا في الوقت نفسه على "رفض" تدبّر القرآن واستكشاف الآفاق والسنن الكونية المحدّدة والمحققة لعوامل النهوض، ولعوامل التقوى ولعوامل الانهيار من جانب آخر، حتى يتأتى لنا أن نعرف الطريقين فنعمل بما يوصلنا "لامتلاك عوامل القيام"، ونعمل في الوقت نفسه على "اجتناب عوامل السقوط". وظل

القرآن يدرس في نطاق محدد، يدور بين إعجاز بياني وإعجاز فقهي... لكن المسلمين الرافضين لعلوم الدنيا، عجزوا عن اكتشاف إعجاز القرآن التربوي مع أنه معجزة تربوية ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩) بالدرجة الأولى، ويسعى للتغيير الداخلي للنفس من أجل تغيير الواقع الخارجي، لأن تغيير ما بالخارج مشروط بتغيير ما بالداخل. إننا نجد في القرآن الكريم النصّ المبدئي للتاريخ التكويني: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١). وينبغي أن لا نقرر هذا المبدأ حسب إيماننا به فقط، إن العمران البشري بمعناه الصحيح الخالد، لا ينبعث إلا بالعقيدة الإسلامية، فالعمران لا يظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجًا، فكأنما قدّر الله على الإنسان ألا تشرق عليه شمس العمران البشري إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، هذا بالنسبة لصحة المبدأ القرآني. وبالنسبة للنقطة الثانية نقول: إنه من المعلوم أن جزيرة العرب –مثلاً– لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة، يذهب وقته هباءً لا ينتفع به، لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة؛ "الإنسان" و"الأرض" و"الوقت" راكدة خاملة. حتى إذا ما تجلّت الروح بغار حراء، نشأ من بين هذه العناصر الثلاثة المكدّسة عمران بشري جديد، فكأنما ولدته كلمة ﴿اقْرَأْ﴾ التي أدهشت النبي الأمي ﷺ، وأثارت معه وعليه العالم. فمن لحظة اقرأ ظهر العرب على مسرح التاريخ، حيث ظلوا قروناً طوالاً يحملون للعالم عمرانا إسلاميا جديدا، ويقودونه إلى الازدهار والرقي(١).

(١) انظر: الطريق إلى إحياء علوم الدين والدنيا معا، عبد الحليم عويس، مجلة حراء، العدد: ٢٨، يناير فبراير ٢٠١٢م، ص٢٢.

المطلب الثاني

منهاج الغزالي في إحياء علوم الدين.

يعد كتاب "إحياء علوم الدين" الذي صنفه الإمام الغزالي في الفترة ما بين (بين ٤٨٨هـ-٤٨٩هـ) -وهي الفترة التي آثر فيها العزلة-، "من أَجَّل كتبه"[١] كما قال الإمام ابن تيمية، أو "من أنفس كتبه وأجملها"[٢] كما قال ابن خلِّكان.

وإن الباعث على توليفه في نظر الغزالي، فهو الانحراف الذي طرأ على مفهوم العلم والفقه، حيث تحول مفهومهما إما إلى مباهاة ومصيدة للحرام، وشبكة للحطام، واستدراج للعوام... مما دفعه إلى بيان حقيقة العلم والفقه من خلال كتابه الإحيـــاء، يقول: "أما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله ســبحانه في كتابه: فقهًا وحكمة وعلمًا وضياء ونورًا وهداية ورشدًا، فقد أصبح مــن بــين الخلق مطويًا وصار نسيًا منسياً.

ولما كان هذا ثلمًا في الدين ملمًا وخطبًا مدلهمًا، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهمًا، إحياء لعلوم الدين، وكشفًا عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحًا لمباهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين"[٣].

والمقصد الذي يممه الإمام الغزالي في كتابه هو ربط العلم النافع بالعمل الصالح، وتخليص العمل من الشوائب ليتحقق فيه الإخلاص، وربط الفقه الأصغر (العبادات والمعاملات) بالفقه الأكبر (تزكية النفس وتهذيبها والسعي في مرضاة الله تعالى والعمل للآخرة).

أولا-مضامين كتاب إحياء علوم الدين.

وجعل كتابه الإحياء في أربعة أرباع وفي كل ربع عشرة كتب:

---

(١) الاستقامة، ٨٠/١.

(٢) وفيات الأعيان، ٢١٧/٤.

(٣) إحياء علوم الدين، ٢/١.

الربع الأول: ربع العبادات:

كتاب العلم، وكتاب قواعد العقائد، وكتاب أسرار الطهارة، وكتاب أسرار الصلاة ومهماتها، وكتاب أسرار الزكاة، وكتاب أسرار الصوم، وكتاب أسرار الحج، وكتاب آداب تلاوة القرآن، وكتاب الأذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل.

الربع الثاني : ربع العادات:

كتاب آداب الأكل، وكتاب آداب النكاح، وكتاب آداب الكسب والمعاش، وكتاب الحلال والحرام، وكتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق، وكتاب آداب العزلة، وكتاب آداب السفر، وكتاب آداب السماع والوجد، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة.

الربع الثالث : ربع المهلكات:

كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب، وكتاب كسر الشهوتين، وكتاب آفات اللسان، وكتاب ذم الغضب والحقد والحسد، وكتاب ذم الدنيا، وكتاب ذم البخل وذم حب المال، وكتاب ذم الجاه والرياء، وكتاب ذم الكبر والعجب، وكتاب ذم الغرور.

الربع الرابع : ربع المنجيات:

كتاب التوبة، وكتاب الصبر والشكر، وكتاب الخوف والرجاء، وكتاب الفقر والزهد، وكتاب التوحيد والتوكل، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا، وكتاب النية والإخلاص والصدق، وكتاب المراقبة والمحاسبة، وكتاب التفكر، وكتاب ذكر الموت وما بعده.

يقول الغزالي عن منهاجه في الكتاب: "فأما ربع العبادات فأذكر فيه خفايا آدابها، ودقائق سننها، وأسرار معانيها، ما يضطر العالم العامل إليه، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه، وأكثر ذلك مما أهمل في فن الفقهيات.

وأما ربع العادات، فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق، وأغوارها، ودقائق سننها، وخفايا الورع في مجاريها، وهي مما لا يستغني عنها متدين.

وأما ربع المهلكات، فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد، ثم الآفات التي عليها تترتب، ثم العلامات التي بها تتعرف، ثم طرق المعالجة التي بها منها يتخلص، كل ذلك مقرونا بشواهد الآيات والأخبار والآثار.

وأما ربع المنجيات، فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها وسببها الذي به تجتلب، وثمرتها التي منها تستفاد، وعلامتها التي بها تتعرف، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل، ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتبا ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور:

الأول: حل ما عقدوه وكشف ما أجملوه

الثاني: ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه

الثالث: إيجاز ما طولوه وضبط ما قرروه

الرابع: حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه

الخامس: تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلا، إذ الكل وإن تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه أو لا يغفل عن التنبيه، ولكن يسهو عن إيراده في الكتب أو لا يسهو، ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف، فهذه خواص هذا الكتاب مع كونه حاويا لمجامع هذه العلوم[١].

أما المسائل العقدية فهي مبثوثة في كل كتاب من هذه الأرباع، إضافة إلى كتاب مستقل بعنوان: "قواعد العقيدة" ضمن ربع العلم ويشتمل على مباحث العقيدة الثلاثة من إلهيات ونبوات وسمعيات، وينقل عن الإمام الغزالي توجيهاته التربوية في هذا الصدد بقوله في "قواعد العقائد":

---

(١) إحياء علوم الدين، ٣/١.

"اعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوه ليحفظه حفظا ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئا فشيئا، فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به، وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان. فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرد والتقليد المحض؟ نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقى إليه، فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي حتى يترسخ ولا يتزلزل. وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام، بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه. ويشتغل بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وسماعهم وهيآتهم في الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له، فيكون أول التلقين كإلقاء بذر في الصدر، وتكون هذه الأسباب كالسقي والتربية له حتى ينمو ذلك البذر يقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء...." (١).

محتوياته:

كتاب "قواعد العقائد" وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة.

الفصل الثاني: في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد.

الفصل الثالث: في لوامع الأدلة للعقيدة المترجم بالقدس. المراد به "الرسالة القدسية في قواعد العقائد".

الفصل الرابع: في قواعد العقائد في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال.

شروحه:

(١) إحياء علوم الدين، ٩٩/١.

الرسالة القدسية في قواعد العقائد، لأبي حامد الغزالي، وهو مختصر لكتابه "قواعد العقائد".

اغتنام الفوائد في شرح قواعد العقائد، للشيخ أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى بن زروق الفاسي البرنسي (ت٨٩٩هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر نصار. وغيرها من الشروح.

وقد طبع ضمن كتب إحياء علوم الدين لكونه الكتاب الثاني من ربع العبادات، كما طبع مع رسائله، وطبع كذلك في كتاب مستقل.

ثانيا-منهاجه في الإحياء.

فقد سلك في عرض الموضوعات التي تناولها فيه طريقة واحدة، تدل على منهاجه الفكري الذي التزم به، وهو منهاج أهل السنة والجماعة في مختلف العصور.

فهو يقدم ذكر الآيات في الموضوع الذي يعرضه، ثم يذكر بعد ذلك ما ورد من الأحاديث النبوية الشريفة في ذلك، ثم يذكر ما ورد من الآثار عن الصحابة ﷺ ومن بعدهم من السلف الصالح في الموضوع، وبعد ذلك يعرض الأفكار التي يريد تناولها في ترتيب وتنسيق قلما نجد ما يماثله في كتاب آخر، الأمر الذي يسهل الرجوع إلى الكتاب والتعامل معه.

أضف إليه أنه عرض موضوعات الكتاب بأسلوب سلس مشوق، وعبارات سهلة تصل إلى النفس بسهولة ويسر، على الرغم من صعوبة بعض الموضوعات التي تناولها.

كما كانت له القدرة على الانتقال من المعنى النفسي إلى الصورة الحسية، الأمر الذي مكنه من تقريب المعاني البعيدة وتجسيدها.

وقد عرض الغزالي الإسلام في كتابه على أنه وحدة غير قابلة للتجزيء، وكما أن الإنسان مكون من جسم وروح وعقل، وكذلك فإن الإسلام يتعامل مع الإنسان في جوانبه الثلاثة في تناسق عجيب.

وكان نظرة الغزالي تتجه إلى علمين: العلم بأعمال الجوارح والعلم بأعمال القلوب، ولم يفصل أحدهما عن الآخر، فأعمال الجوارح منها ما هو عادة ومنها ما هو عبادة، وأعمال القلوب منها ما هو محمود ومنها ما هو مذموم.

وبهذا التقسيم استطاع الغزالي أن يستوعب إجمالا أوامر الإسلام، فكان كتابه الإحياء فريدا في طريقة توليفه.

أما في مسائل أصول الدين: فلم يكن الغزالي مثل غيره من العلماء الذين دأبهم حفظ ما يتلقون، وإعادته وتكراره ونقله، بل كان عالما فاعلا، تخضع الفكرة المتلقاة لديه إلى الفحص والاختبار. ومن ثم قد ترفض أو تعدل، أو توضح وتشرح، إنها عملية التجديد..

لقد كان لحجة الإسلام أبي حامد أثره الواضح في علم الكلام، فلم يكن لمثل الغزالي مع مواهبه وعقله المبتكر. وعلمه الذي لم يزل في نمو مستمر أن يكون ناقلا لكلام المتكلمين المتقدمين، أو يكون شارحا له فحسب، ولا تظهر شخصيته العلمية فيما يكتب ويؤلف، بل كان مجتهدا مجددا لكثير من أبواب علم الكلام، بارعا فيها...

كان-رحمه الله- على منهاج السلف، رافضا التقليد؛ لكونه يرى أن العالم لا ينبغي أن يكون مقلدا، فيقول في شرحه لصفات علماء الآخرة: "ومنها أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه، لا على الصحف والكتب، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره، وإنما المقلَّد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله، وإنما يقلَّد الصحابة ﷺ من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله ﷺ.

ثم إذا قلد صاحب الشرع ﷺ في تلقي أقواله وأفعاله بالقبول، فينبغي أن يكون حريصا على فهم أسراره، فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع ﷺ فعله، وفعله لا بد وأن يكون لسر فيه، فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال، فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم، ولا يكون عالما. ولذلك كان

يقال: فلان من أوعية العلم، فلا يسمى عالما إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار"(١).

ويشدد في رفض التقليد والتعصب للمذهب فيقول: "ومنها: أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد، وجمد عليه، وثبت في نفسه التعصب له، بمجرد الاتباع للمسموع، من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة.

فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده، فصار نظره موقوفا على مسموعه، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه، حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك، فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله"(٢).

ولعل إصرار الإمام الغزالي على نبذ التقليد ما رآه من إكباب علماء عصره على التقليد وعدم تزحزحهم عنه وتعطيل فكرهم وعقولهم، حتى وصل بهم الأمر: إلى تكفير بعضهم بعضا بمجرد الاختلاف في بعض المسائل، وتلك ثلمة في الدين كبيرة.

وإذا كان الإمام الغزالي قد دعا إلى رفض التقليد، فإنه في المقابل يدعو إلى الرجوع إلى النبع الصافي والمصدر الأصيل، الذي لم تشبه الكدورات: إنه القرآن الكريم والسنة النبوية.

ودعوته إلى التزام القرآن والسنة ونهج الصحابة ﷺ، كانت هي اللازمة التي يكررها دائما في كل مصنفاته. لكون كل العلماء والأئمة كلهم تلاميذ صغار أمام بيان القرآن والسنة ومنهاج الصحابة ﷺ.

والإمام الغزالي في المسائل الكلامية لم يلغ دور العقل في تحصيل العقائد. ولم يخرج عن دائرة الفكر الأشعري في أن النقل هو الأساس، وأن العقل خادم للنقل، ووسيلة لإثباته، لذلك رفض المنطلقات الفكرية للحشوية الذين أخذوا بظواهر

(١) إحياء علوم الدين، ٩٩/١.

(٢) إحياء علوم الدين، ٢٨٤/١.

الشرع، وتركوا العقل جانبا، وفي الوقت نفسه نقد المعتزلة الذين تركوا الشرع واعتمدوا على العقل فقط.

وفضلا عن ذلك؛ فإن الهدف من علم الكلام عند الإمام الغزالي هو "حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة"(١).

ومجمل القول: إن كتاب "إحياء علوم الدين" ظل يحتل مكانة رفيعة وصدارة في المكتبة الإسلامية، منذ ألفه الغزالي، وحتى يومنا هذا، على الرغم من الناقدين له.

فما من كتاب آخر حصل له ذلك الانتشار الواسع، والشهرة الكبيرة، والقبول حتى بات اسمه محفوظا من العالم والأمي..

ولم يكن ذلك من فراغ، فالكتاب له من الميزات ما أكسبه تلك المنزلة وبوأه تلك المكانة الرفيعة..

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الندوي-رحمه الله-:"وكأن المصنف-الغزالي- حاول أن يكون هذا الكتاب -كمرشد مرب-مغنيا عن غيره، قائما مقام المكتبة الإسلامية، لذلك جعله يحتوي على العقائد، والفقه، وتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، والحصول على مرتبة الإحسان"(٢).

ويقول: "وقد استحق الغزالي ببحوثه العميقة في الأخلاق، وبتأليفه العظيم "إحياء علوم الدين" أن يوضع في الصف الأول من علماء الأخلاق، وأن يكون موضع دراسة وعناية من الباحثين في علم الأخلاق، وعلم النفس والمؤرخين لهذا الموضوع"(٣).

ثالثا- مصادر الغزالي في الإحياء.

لقد تنوعت المصادر التي اعتمد عليها حجة الإسلام في الإحياء، ما بين شرعية وكلامية وفلسفية وسلوكية...

---

(١) المنقذ من الضلال، ص١٣.

(٢) رجال الفكر والدعوة في الإسلام، تحقيق: مصطفى أبو سليمان الندوي، ١٨٢/١.

(٣) رجال الفكر والدعوة، ١٨١/١.

-المصادر الشرعية: أشار إليها في مقدمة الإحياء حيث قال: "وأما ربع المهلكات، فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه... كل ذلك مقرونا بشواهد الآيات والأخبار والآثار.

وأما ربع المنجيات، فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها... مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل"اهـ.

وقد أكثر الغزالي من ذكر الآيات القرآنية والأحاديث والآثار... وفي بعض الآثار التي ينقلها نظر عند أهل الصنعة الحديثية، وقام الإمام الحافظ عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت٨٠٦هـ) بتخريج أحاديث الإحياء وأخباره في كتابه الموسوم ب:" المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار".

أما المصادر الكلامية: فينقل الغزالي من كلام شيخه إمام الحرمين الجويني في "الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد" و"الشامل في أصول الدين" ونحوهما، وما يرويه الرواة عن أبي الحسن الأشعري، وأبي هاشم الجبائي وغيرهم.

أما المصادر الفلسفية، فينقل من كلام ابن سينا، ورسائل أبي حيان التوحيدي وغيرهما.

أما المصادر الصوفية: فقد صرح الغزالي بمصادره في علم التصوف قائلا:"فابتدأت بتحصيل علمه من مطالعة كتبهم مثل "قوت القلوب" لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي، وأبي يزيد البسطامي"(١).

أما "قوت القلوب" لأبي طالب المكي فيعتبر من أهم مصادره. إضافة إلى الرسالة لأبي القاسم القشيري.

إضافة إلى كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم، الذي يعتبر من أهم كتب تراجم الزهاد والعباد والصالحين، ومعرفة أحوالهم وأقوالهم، وهذا الكتاب "من أجود الكتب المصنفة في أخبار الزهاد"(٢)-كما قال ابن تيمية- حيث نقل منه الغزالي حكايات

(١) المنقذ من الضلال، ص٣٤.

(٢) مجموع الفتاوى، ٧١/١٨.

الصالحين ومأثوراتهم، ولأهمية هذا الكتاب يحض الغزالي على قراءته فيقول:" فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب (حلية الأولياء) فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وبالوقوف عليه يستبين لك بُعدك وبُعد أهل عصرك من أهل الدين"(١).

ومن أهم مصادر التصوف التي استقى منها الإمام الغزالي شيوخه الذين أخذ منهم وتأثر بهم: أبو علي الفارمذي، ويوسف النساج، وأبو الحسين أردشير العبادي وغيرهم..

مسك الختام

يعتبر كتاب إحياء علوم لحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي -رحمه الله- من الدرر النفيسة والجواهر الغالية التي يرصع به تاج الفكر الإسلامي، ومن الأسفار المفيدة النافعة في المكتبة الإسلامية، فيه فوائد جمة ومنافع كثيرة، وفرائد نادرة، لقد جمع فيه رحمه الله ما تفرق في غيره، وتحدث فيه عن الفقه المغيب في هذا الزمان ألا وهو فقه القلوب.

فكان بذلك دعامة أساسة في صرح علوم الشريعة.

(١) إحياء علوم الدين، ٤/٤١٦.